

التجديد في الأدب

للأستاذ أحمد أمين

٢

عرضت في مقالى السابق للبحث فى الألفاظ وما تتطلب من جدة؛ واليوم أعرض لضرب آخر من ضروب التجديد وهو التجديد فى العبارة. وأعنى بالعبارة الجملة التى يؤدى بها المعنى على اختلاف ألوانها، من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية.

ومما لا شك فيه أن البليغ يستمد تشبيهاته واستعاراته وما إلى ذلك مما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية. فالأدب الجاهلى — مثلاً — صورة صادقة لمعيشة العربى فى الجاهلية؛ إذا بكى، فأنما يبكى الأطلال والمنزل الدائر والرسم العافى. وإذا رحل، فعلى ناقه أو بعير. وإذا أعجبه نبت، فالشيع والقيصوم، والخزامى والعرار. وإذا ذكر النسيم، فصبا نجد. وإذا حن إلى مكان، فوطنه من الرقتين ورضوى وثبير. كذلك كان فى تشبيهاته واستعاراته وأمثاله: يستوحى ما يحيط به، ويستلهم ما يقع حسه عليه. فقال: استنوق الجمل، وهو أعز من الأبلق العقوق، وأبدت الرغوة عن الصريح، وهم أكثر من الحصى، وهو ليش غابة، وما تحل حبوته، وألقى حبله على غاربه، وقصرت الأعنة، واشتجرت الأسنة، وزلزلت الأقدام من رنين القسي، وقراع الرماح، وطحنهم طحن الرحى، ومطله مطل نعاس الكلب، وكالباحث عن حتفه بظلفه، وحط راحلته، وضرب أوتاده، وألقى عصاه، والقافلة تسير والكلاب تنبح. إلى كثير من أمثال ذلك — فهم فى كل هذا يصفون حياتهم، ويشقون منها تشبيهاتهم، ويضربون منها أمثالهم. وتتابع أدباء العرب بعدئذ يزدون فى التعبير، تبعاً لتغير المعيشة الاجتماعية، وتقدمهم فى الحضارة. فقالوا: صندل

الشراب وعنبره — وكان أخلاقه سبكت من الذهب المصنى — ويكاد يسيل الظرف من أعطافه، ويمازج الأرواح لرقته — قد دس له الغدر فى الملق — وهو من صيارفة الكلام، يتطفل على موائد الكتاب — وكان ألفاظه قطع الرياض، وكان معانيه نسيم الآصال. وهكذا كانت العبارات المحدثه فى العصر العباسى تخالف من وجوه كثيرة العبارات الجاهلية والأموية.

وقد جارى المؤلفون الأدباء: يدنون ما اخترعوا، ويقيدون ما أبدعوا. فرأينا عبد الرحمن الهمداني يجمع فى كتابه (الألفاظ الكتابية) العبارات المختارة من جاهلية وإسلامية ورأينا الحصرى يملأ كتابه (زهرا الآداب) بفصول يعنونها «ألفاظ لأهل العصر» يجمع تحتها ما اخترعه أهل عصره من تعبير رقيق وتشبيه أنيق. ونهج المؤلفون بعد هذا المسلك حتى كان خاتمتهم إبراهيم اليازجى فى كتابه «نجمه الرائد وشرعة الوارد» جمع فيه أحسن العبارات والألفاظ مما قال السابقون والمحدثون إلى عصره.

وبعد، فلو قارنا بين الأدب العربى الحديث، والأدب الغربى فى هذا الباب، أعنى باب العبارة، وجدنا فى أدبنا العربى قصوراً ظاهراً، وضعفاً بيناً.

ذلك أن الأدب الغربى سائر الزمن، واعترف بكل ما حدث فيه، واستمد منه، على حين أن الأدب العربى الحديث أغمض عينه عن كل ما كان، ولم يعترف بوجوده. نظر الأدب الغربى إلى ماضيه وحاضره ومستقبله؛ ولم ينظر الأدب العربى إلا إلى ماضيه. وزع الأدب الغربى لفتاته لينظر نظرة شاملة وثبتت الأدب العربى عينه فيما وراءه، فلم ينظر إلا إلى قديمه، فكان ناقصاً، لا يسايرنا ولا يصفنا ولا يمس حياتنا، وإنما يمس حياة آبائنا.

اعترف الادب الغربى بالادب القديم فأخذ منه خير، واعترف بالدنيا الحديثة فاستمد تشبيهاته واستعاراته منها. رأى فى دنياه مخترعات ومستكشفات لاحد لها من كهرباء ومواد كيميائية وطيارات وغواصات وغازات وأضواء وراديو ومالا يحصى كثرة. كل هذه الاشياء قلبت الحياة الاجتماعية رأساً

على عقب . فلماذا لا تقلب الأدب ؟ فأقبل الأديب عليها يتعرفها ويستلهمها تشبيهات واستعارات عصرية طريفة ، فكان له منها ما أراد

ورأى الأديب علم النفس ينمو ويرقى ويحلل أعمال الإنسان تحليلاً علمياً دقيقاً ، ويعرض لكل المظاهر اليومية من ابتسامة وعبوس ورضى وغضب ، فأخذ يحفظ وافر منه واستعان به في أدبه وتعبيراته حتى استطاع أحد الكتاب الفرنسيين (وهو مارسيل بروسـت Marcel Proust) أن يحلل ابتسامة سيدة في ست صفحات ، ورأى نظماً في الحكم تقوم وأخرى تسقط وكان لها من الأثر في حياة الناس وعقليتهم ما يخيل اليك معها أنهم أصبحوا بها خلقاً آخر ، فجعل يتبع هذه التغيرات ويقتبس منها ما شاء ذوقه الأديب

كل هذا وأمثاله جعل الأدب الغربي يسير محاذياً لكل نظم الحياة ويشاركها في رقيها واتجاهها ، إن استضاء الناس بمصباح كهربائي فالأدب يعبر عنه ويستعير منه ويشبه به ، وإن كان نظام الحكم ديمقراطياً فالأدب ديمقراطي ، والصور التي يصورها ديمقراطية ، ويتمتع السيكولوجي في بحثه فيتمتع الروائي في تحليل شخصيات روايته ، وهكذا كانت الاختراعات والصناعات والعلوم ونظم الحكم والسياسة والأدب تسير معاً ، لا يخطو عنصر منها خطوة إلى الامام حتى يدرك الآخر سر تقدمه فيعمل على أن يحتذيه . أما الأدب العربي فيحارب متراليوزا بقوس وسهم ، ويضئ في أدبه سراجاً بزيوت ، والناس اليوم قادمون على أن يغيروا المصباح الكهربائي بخير منه ، ويكي الأطلال ولا أطلال ، ويحن إلى سلع ولا سلع ، ويستطيب الخزامى والعرار ولا خزامى لدينا ولا عرار . من الحق أن نحب القديم الجميل ونحفظه ونتعلم منه ونعجب بما فيه من مظهر عاطفة حية وشعور قوي ، ولكن لا ننشئه . وإذا قلناه وجب أن نقول معه ما نحياه ونعيش فيه إذا أنت لم تحم القديم بحادث

من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

وقفت العبارة العربية حيث كانت في العصر العباسي ، ولم تتقدم إلا قليلاً بما اقتبس من الأدب الغربي ، والذي تتطلبه من التجديد فيها أن نستمد من حياتنا الواقعية ، ومن

كل ما يحيط بنا جملاً حية تلائم مافي نفوسنا ، وأن نخترع عبارات من المجازات والاستعارات والتشبيهات والكنايات نستمدّها من الحياة التي نعيشها ، والمخترعات التي نستخدمها ، وما وصلت اليه علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد . . .

وقد عاقى الأدب العربي الحديث عن الوصول إلى هذه الغاية عوائق كثيرة أهمها :

(١) ما سبقت الإشارة اليه من أن المخترعات ليس لها أسماء ، وأن أئمة اللغة لم يرضوا أن يستعملوا الكلمات الأجنبية ولا وضعوا لها أسماء عربية ، وتركوا الأدباء في حيرة من أمرهم ، فكيف يستطيعون أن يستلهموها في جملة لتكسب المعنى قوة ، وهم يفرون من التلفظ بها ، ويخشون من علماء اللغة استعمالها ، لذلك رضينا من الأدب بالعدول عنها جملة وتفصيلاً ، حقيقة ومجازاً . وهذا سد أمام الأديب العربي باب من أوسع الابواب وأغزرها فائدة .

(٢) وسبب آخر من أهم الأسباب في فقر الأدب العربي في التعبير ، هو أن الادب العربي الحديث أدب أرستقراطي لا أدب شعبي ، وأعني أرستقراطية العلم لا أرستقراطية المال ، ذلك أن الأدب الانجليزي أو الفرنسي أو الالماني ، أدب شعب لا أدب طبقة خاصة — نعم قد يرقى الادب الانجليزي مثلاً — فلا يفهمه إلا الراقون ، ولكن بجانبه أدب انجليزي شعبي ، لا يختلف عن أدب الخاصة في ألفاظه وتراكيبه وان اختلف في دقة المعنى وبساطته — أما الادب العربي فأدب خاص لطائفة المتعلمين تعليماً راقياً فحسب ، لا يشاركون فيه العامة واشباه العامة ، وللعامة أدب بلدى خاص ، يستمتعون به في أغانيهم ونكتهم وزجلهم وموالياتهم — وحتى الخاصة ، لا يتذوقون الادب العربي إلا في الكتب والمجلات والجرائد ، أما أحاديثهم وتنادرهم وفكاهاتهم باللغة العامية ، وليست أمة من الأمم الحية الآن بين لغتها اليومية ولغتها الادبية من الفروق ما بين اللغة العربية واللغة العامية . نتج من هذه الظاهرة نقص كبير في الأدب العربي الحديث ، لان استعمال الكلمات والعبارات في البيت وعلى المائدة وفي

الشارع يكسبها حياة قوية ويزيدها صقلا ومرونة ، ولو اقتصر في استعمالها على الكتب كانت حياتها ناقصة ، لا يهذبها الاستعمال ولا يرقبها الصقل اليومي . وحسبك ذليلا على ذلك أن النكت والنوادر وهي من أهم أركان الأدب لا تجد منها سائغا عذبا في أدبنا العربي عشر معشار ما تجده في الأدب العامي ، وأن النادرة تحكى بالعامية فتضحكك إلى أقصى حد ، ثم تحكيها باللغة الفصحى فتخرج باردة تافهة ، وأن كثيرا من الألفاظ والتعبيرات العامية قد أفادها الاستعمال رواقية ، فاذا عبرت عنها بالعربية لم تجد لها من التعبير قوة العامية وحسن دلائها على المعنى

وكل أمة قد كسبت من توحيد لغتها الكلامية والكتانية ما لا يقدر ، فقد أصبح الشعب كلها متجا أديبا وتعبيرا قويا ، وأصبح الحديث على المائدة وفي حجرة الجلوس وفي التمثيل والسينما يخرج أديبا جديدا ويحيي أديبا قديما ، والأمة كلها تتعاون في الإنتاج الأدبي ، هذا بتعبيره الرقيق ، وهذا بنكته ونوادره ، وهذا بقصته وأمثاله ، وهذا بشعره ، وهكذا

وليس كذلك الحال في الأدب العربي ، فالأمثال والنوادر والحكايات باللغة العامية ، والأحاديث اليومية وقضاء كل شؤون الحياة باللغة العامية ، وليس للغة العربية إلا الكتاب وما إليه — ولذلك أصبح عندنا أدبان أدب أرستقراطي هو هذا الشعر والكتب التي تؤلف ، والمجلات والجرائد التي تنشر وأدب شعبي هو الزجل والاغاني والحواديت وما إليها ، وبين الأديين فواصل كبيرة وحواجز متينة ، وفي هذا ضرر كبير على الأمة والأدب معا ، أما الأمة فلا تسمع شعبها لا ينتفع بتأثير المتعلمين منها ، وأما الأدب فلا تسمع ليس أديبا صحيحا ، إذ الأدب الصحيح هو ما كان ظلا لحياة الأمة الاجتماعية كلها لا الحياة طبقة خاصة منها

ولا أمل لحياة الأدب العربي من هذه الناحية إلا بإزالة الحواجز القوية بين العامية والعربية ، على أي وجه يرضاه قادة الأمة ، ويحفظ للغة العربية مكانتها من حيث هي لغة الدين ورابطة الشعوب الشرقية . إذ ذاك تصبح اللغة حية ، والتعبيرات حية ؛ وإذ ذاك تزول الحيرة التي نعيش فيها الآن ،

فإنك تستعمل اللفظ العامي والعبارة العامية ، فلا تجد لها نظيرا في العربية ، وإن وجدت لها نظيرا فظير ميت ليس فيه حياتها . كنت أقرأ الآن في جريدة فوجدت فيها كلمة « ببع » وكنت أسمع فسمعت من يقول : انه بيت « مبهو » ومن يقول « رزق الهبل على المجانين » . ووجدتني اذا أجهدت نفسي قد أعثر على تعبيرات عربية مرادفة لها أو قريبة منها . ولكن ليس فيها حياتها ، لأن الحياة وليدة الاستعمال ، وأريد الاستعمال الشعبي . وهذا أحد الأسباب في أن مقالات الأستاذ فكرى أباطه ، والمجلات الهزلية ، والهزلية الجديدة ، لها من الرواج في أوساط الجماهير ما ليس لغيرها ، وتفتح لها نفوس شعبية أكثر مما تفتح للمقالات العربية الصرفة ؛ وترن الكلمة أو العبارة في الأذن رنيناً دون رنين العربية الكلاسيكية .

(٣) وسبب ثالث هو أن الحواجز عندنا بين العلم والأدب قوية متينة ، وإن شئت فقل إنه ليس هناك صلة بين كلية العلوم والآداب ، وأن الثقافة التي يتتقها الأديب ينقصها — غالباً — قدر ضروري صالح من المعلومات العلمية ، تجعله يستطيع أن يلم المساماً ما بالمخترعات والمستكشفات ، ويستغلها في أدبه . وهذا القدر يلقيه الأديب الأوربي في بيته وفيما يقع في يده من كتب ومجلات أولية ، ثم في مدرسته . وأديبا الطبقة الأولى منهم كانوا على حظ عظيم من الثقافة العلمية استغلوها في منتجاتهم ، فأصبحت هناك أنواع من الأدب ، ومن التعبيرات والتشبيهات القوية التي تعتمد على الثقافات العلمية ، أخذها منهم الشعب واستساغها . أما برنامج الأديب العربي فقاصر من هذه الناحية كل القصور ؛ ولذلك كان نتاجه قاصراً كل القصور .

وهناك أنواع من التجديد في الأسلوب والموضوع والنثر الفني والشعر والقصة وغيرها ، نعرض لها فيما بعد .

oooooooooooo

التجديد في الادب

جاءنا بعض ردود على مقالة الأستاذ احمد أمين في التجديد

في الادب نشرها في العدد التالي